الدين والحياة

للأستاذ حامد محمود الزفزى

من الممكن أن نقف على حقيقة هامة فى حياة الأمم وعوامل رقيها والطاقات الدافعة لها نحو النمو والازدهار . وبناء الحضارة وإقامة المدنية . وذلك عندما نلاحظ التماسك الفردى فى داخل الإطار العام الجماعى . وتوجيه قوى الفرد نحو الرفاهية وتحقيق الذاتية فى ظل الإرادة الجماعية . وأوضح مايكون ذلك ويؤتى ثماره ويكون عاملا فعالا إذا وضحت الطريق وبان السبيل ، على أن يكون هذا الإطار العام أو فلسفة القيادة . أو منهج التوجيه ونظرية الحكم . على أن يكون ممتدا فى قبليته إلى الأعماق والجذور الأصيلة . فى تكوين تلك الجماعة من الناحية التاريخية والنفسية . والواقع أن الأيديولوجيه التى يدخل فى تيارها شعب أو تسير جماعة لاتثبت على الزمن وتقوى على الحوادث والظروف سياسية أو إجتماعية . الخ الا إذا كانت تضع العوامل التاريخية وتعرف أهدافها الجماعية وتطور من حياتها العلمية والثقافية . ثم تدفع بكل طاقاتها إلى الصمود والمشاركة العامة فى إقامة صرح الأمة .

وإذا كان الأمر كذلك وهو مانراه فى سير الأمم الحديثة فهل من الممكن أن نلمس هذه المقومات فيما إذا أردنا التعرف على أيديولوجية إسلامية إذا صح هذا التعبير .؟

قلت نعم ياصديقى ولكنك تركت الحديث عن المرأه فاستطرد قائلا . الواقع أن الحديث عن تنظيم قوى المرأة لذيذ وجميل ومن حق القراء الا نبرح موضوعها الا إذا وفيناه حقه ، ولكن هذا الحديث دفعتنى إليه أسباب قد لا تخفى عليك .

فقلت على أيه حال ياصديقى فإن الاندفاع الفردى داخل الإطار الجماعى فى العصر الحديث تختلف عوامله وسبله وغاياته فى العصور الماضية وبقدر هذا الاختلاف فى الأسلوب والغاية والمستقبل والمظهر يكون التباين فى الأطر سياسية أو دينيه .

فإن هذه الطرق الحديثة قد تامت على أساس ثورى من طبقة ضد طبقة وقد كان عامل الحقد والطبقية والثورة هو المسيطر على صعيد التصرفات الثورية هذه فهدفها رفع الطبقة الثائرة إقتصاديا وفكريا وسياسيا . بل إن التوجيه السليط والثأر من كل من يتعرض أو يتصدى للمعارضة أو الاستفهام بله الانتقاد والاستنكار . وفى هذا التيار الغامر يغلب الفكر الثائر وتكون . . . الأفكار والتوجيهات غير إنسانية بقدر ما هى ذاتية وتسلطيه . وغير رحيمة . ولو أدعت أنها قامت من أجل مصلحة الجماعة ويعتمدون فى تفلسفهم على تفسيرات مادية . أو ديالكتيكية مادية كما يقولون. فمثلا يبدأ كتاب الحركة فى الطبيعة : تأليف روجيه غارودى ، ترجمة محمد عيناني . يبدأ الكتاب بقوله . قال هيرا قليط . « العالم واحد . لم يخلقه أى إله ولا إنسان وقد كان ومايزال شعلة حية إلى الأبد تشتعل وتنطفىء تبعا لقوانين معينة » ثم يستطرد قائلا . وقد لاحظ لينين على هامش كتابه الدفاتر الفلسفية حين أورد هذا النص فقال . يالله من شرح رائع لمبادىء الديالكتيكية المادية . اهـ . وإذن فكاهن الشيوعية وقائد البلشفية لينين يرى أن تقوم الجماعة الحمراء على أساس من قطع صلة الفرد بالكون الكلى والواقع رغم مانرى من إطلاق الصواريخ والأقمار الروسية . أن هذا الاتجاه قتال للقوى ولاعب بالنار وكابح للغرائز وهدام للنفس أكثر من أعماله الاقتصادية ومنتجاته الصناعية ودعاياته السلمية . لذلك يمكن أن نرى . . فى بساطة بعض خطوط سيرها بالنسبة للفكر التدميرى وتسخير الفكر والعلم لخدمة الأغراض التفوقية فى مجال الصراع والتناحر . وكذلك الأيديولوجية الرأسمالية فى أمريكا فهذا الجمع من مهاجرى العالم وإبادة السكان الأصليين واستخراج خيرات هذه البلاد البكر ومنتجاتها ولعب اليهود والصهاينة بمصائر هذا الشتات ومحاولة خلق أيديولوجيه تقوم على أساس الاحتكار والاستعمار والاستغلال داخل البلاد وخارجها . ليست غاية هذا التوجيه سوى الربح والاستغلال ولو كان على حساب الأفراد والدماء والتخريب والاستعمار ولا هدف غير الكسب واللعب بالنار حتى لو راح ضحية هذه الغاية ملايين البشر . وحماية هذه الأغراض الجشعة بآلات التدمير وصناعة الأسلحة ومخترعات الحروب . ونحن نقرأ ونسمع قيام الاحتكار الأمريكى يحرق كثيرا من القمح فى أحيان كثيرة حفاظا منه على نظريته الاحتكارية .

ومن هذا الصراع الدامى والشكل الرهيب المخرب والتناحر المذهبى البغيض جدت مشكلات العصر القلق ذى النثيان وألفينا الإنسان عرضة ونهبا للتيارات المفزعة . وليس بغائب عنا ما تعانيه الشعوب والأمم من استعمار وارهاب . فحوادث الكونجو ولاوس والجزائر والمجر وبرلين . الخ . الواقع أن هذه الأيديولوجيات الأوربية شرقية وغربية وأمريكية . وهذه التوجيهات المعاصرة تختلف إلى حد كبير عن التوجيهات والغايات والوسائل فى العصور السالفة .

نعم كان فى الماضى حروب ومناجزة ولكنها ليست كاليوم حرارة وضراوة فهى اليوم فظيعة وبشعة والنظرة البسيطة ياصديقى ترينا أن الغرض الإنسانى من التقدم والدور التاريخى أضحى مريضا وعليلا بسبب هذه الأيديولوجيات الأثمة الشريرة التى لم ترجع فى تكوينها إلى العوامل الصادقة والأغراض الهادفة فى تكوين الأفراد وغايات الشعوب والجماعات والربط بينها وبين الغاية العظمى من الوجود العام الذى نرتبط به أرتباط إيجاد ودوام ومن هنا تختلف هذه الاتجاهات عن الدين ، ومن هنا يمكن أن نقول بصراحة قدر مانعرف . أن الدين يعالج المواقف النفسية الفردية ويوازن بينها وبين احتياجاتها وملابسات تعاملها مع الأحداث الصامتة والتحركة الظاهرة والباطنة الحاضرة والمستقبلة وفى غير كبت أو إرهاق وفى غير عنف أو ضياع أو تسلط ويربط بين كل ذلك وبين حاجة الجماعات وغاية البشرية والأهداف العامة الوجودية . وهو فى ذلك لايخرج عن التطور التاريخى والمراحل الزمنية . والعوامل النفسية . والدين بهذا السلوك إنما يهدف إلى إيجاد جو نفسى واجتماعى ومدنى وحضارى تتحقق فيه سعادة الافراد ورفاهية المجتمع وخط سير الوجود السرمدى الدائم الذى لم يكن وجودنا الحالى الا بعض قطاعاته .

فالإسلام مثلا وهو الدين الغالب فى المنطقة العربية من الخليج إلى المحيط . يمكن أن نعزو إليه الفعالية الدافعة والقوة الخالقة فى التجمع والتقارب . فهو فى الماضى أساس للأيديولوجية العربية وهو الذى دفع بهذه القومية إلى التمدد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وعمل على ربط قوى الأفراد واعتصامها بهدف إنسانى واحد وفلسفة كونية واحدة وقد أيقظ بهذا العوامل الخيرة فى بنى البشر فدخل فى حوزته جمع كبير

وجم غفير وسلك سبيله وآمن بتنظيمه أكبر عدد من الناس وقادهم إلى النهوض والصعود فى غير تسلط أو تناحر وفى بناء وعمران لاتخريب ولا استعمار أو احتكار وأقام مدنية فكرية ونهضة إنسانية لم يسبق لها مثيل ، وهو اليوم بما أودع فى طرق تنظيمه للقوى البشرية من الحقائق قادر على أن يتجاوب وينهض فى إحياء المعانى الشريفة لدى النفوس والغايات النبيلة فى الحقل الاجتماعى وذلك لا يتجافى مع المرحلة الزمنية الحالية كما يحلو للبعض أن يقول . بل ان عوامل التاريخ والتقدم والثورة والحالة السيكولوجية للسكان من الممكن إذا استهدفنا خير الإنسانية ولاسيما إذا كان قائد الجموع فى منطقتنا رائد عربى يؤمن بالإنسان والحرية والحقائق الأدبية والغايات الكونية فى صدق وإخلاص . من الممكن أن توجه قوانا الصاعدة وطاقاتنا الثائرة نحو الحرية والمثل الإسلامية فى هذا الجو التاريخى المعاصر لنخلق أيديولوجية عربية مشدودة بمعانينا التاريخية وقلوبنا الدينية ونفوسنا الحرة الأبية وأهدافنا الإنسانية وفى هذه الانطلاقة يمكن أن نحقق للإنسان حياة أسعد وعيشا أهنأ وظروفا أكثر راحة وطمأنينة مما هو عليه الآن من قلق وغثيان ونستطيع أن نقف حائلا بين شر الأيديولوجية الشيوعية الحمراء التى تسكر بالدماء وبين الأيديولوجية الرأسمالية الجشعة التى تتيه بالتخريب والفساد . إننا نستطيع بما أوتينا من جو تاريخى ومكانى ونفسى أن نخرج البشرية من المأزق الحرج الذى تعانيه وتذرق مرارته .

وفى مجال التفسير والقيادة المثالية للأيديولوجية العربية نجد أن التعاونية ركيزه أولى فى بناء الدين وهدف الإسلام فى شتى المجالات ، والإشتراكية لون من التقارب الإنسانى الذى يسعى إليه الإسلام بل ودعا إليه فى عنف لطيف لا فى أسلوب أحمر سخيف . والديمقراطية هى أساس الحكم فى الإسلام . وقد تناول القرآن الكريم شكل التنظيم للمجتمع بصورة ستظل جديدة وخالدة وخيرة وهادفة مادام أصحاب الدعوة مستمسكون بأهدافها . ولكن أين الأيديولوجية العربية . الديمقراطية التعاونية الاشتراكية . وأين مكان تفسيرها من القرآن ؟ قال صاحبى هذا تساؤل يمكن أن يكون له محل من الحديث قلت نعم وهذا ما نأمل أن يكون موضوع الحديث القادم إن شاء الله ؟